" أمثالنا تفضحنا ".

يُحكى أنّ رجلًا كانت له معاملة في إحدى الدوائر الحكومية. فطلب منه الموظف أولًا شهادة ميلادٍ فقدّمها. ثم طلب منه شهادة تطعيم فجاء بها، وطلب وطلب. وعند إحضار جميع الوثائق والشهادات المختلفة قال له: "قرّرنا رفض طلبك". فبحلق الرجل بوجه الموظف برهةً ثم قال: "صحيح إن الحكومة مَرا، لمّا تصير الحكومة زلمة وقتها بنحكي".

هكذا أراد الرجل أن يقول كلمة بالحكومة ولم يجد لسانه إلّا كلمة "مرا"، يعني لو كانت الحكومة رجلًا لعرفت ماذا تريد من أول مرّة بدل "الشحشطة" و "المرمطة".

إذا تمعنّا النظر بهذه القصة نجد أنّ الإساءة هُنا ليست موجّهة إلى الحكومة، بقدر أنّها موجّهة إلى المرأة، كل امرأة عندنا. فنحن -بارك الله فينا- عندنا أمثال وأقوال مأثورة كثيرة تدل على نظرتنا السلبية نحو المرأة، وصدق من قال: "أمثالنا مِثالُنا"، فكلّما خانتنا الشهامة في مواقف الكرامة نقول: "الرجال عند غراضها نسوان" كما نقول "البيت اللّي ربوا مرا كل ماله لورا"، ونسمع أيضًا: "المرا اسمها حرمة لأن الله حرمها من العقل والدين"، ونكرر أيضًا: "المرا مثل المعزاية إن تركتها على هواها أكلت الأخضر واليابس".

يُقال أنه إذا أردت أن تتعرف على شعب ما، فانظر إلى أمثاله الشّعبيّة فهي تصوير للواقع الذي يعيشه هذا الشعب.

يؤسفني أن أقول أنّ هذه الأقوال مستأصلة في نفوسنا وفي ثقافتنا وتراثنا، وخاصة في نفوسنا نحن الرجال. وممّا يؤسف أننا نورثها لأبنائنا من بعدنا.

هل تلاحظون أنّ كل الكلمات العربية ذات المضامين السّلبيّة، أكثرها كلمات مؤنثة: مصيبة وضريبة وعلّة وفتنة وطائفيّة وخيانة ومحاكمة وأفعى وعقرب وأم أربع وأربعين...

بينما نطلق أسماء مذكرة على الأشياء العظيمة مثل: السيف والرمح والقلم والعطاء والكرم والعزم وغيرها الكثير.

كلّنا نعرف المثل القائل "هم البنات للممات"، فعندما يرزقنا الله بصبي نستبشر خيرًا، ونغدق الهدايا والهبات ونفرش الموائد والولائم كأن المولود "صلاح الدين" المستقبل.

وإذا كانت المولودة بنتًا "صَفَنّا" كأنها نائبة من نائبات الدهر، ولعلّ أسوأ ما سمعناه من أمثال وأقاويل هو: "المرا كل ما بهدلتها حبّتك وكل ما دللتها سبّتك". "والمرا مثل السجادة ما بتتنظف إلّا بالخبط" وغيرها الكثير الكثير من الأمثال.

إذا كان الإسلام قد أنصف المرأة فلماذا نظلمها؟!

ألا تشعرون أننا -نحن معشر الرجال- قد "زوّدناها" قليلًا؟ يخرج علينا أحدهم ، لا يفقه شيئًا بالدِّين الا قوله تعالى :" إنَّ كيدهنَّ عظيم " ويصدر الفتاوى والتفاسير كأنه الزمخشري.

ألا تشعرون أننا نعطي بناتنا ذلك الشعور أنها كانت "غلطة" وأنه لو كنّا في الجاهلية لَأَهَلْنا التراب عليها. هل تروني أبالغ؟!

أليس من الوأد أن تعمل زوجتك ليل نهار; في بيتك وخارجه، بلا عُطل ولا إجازات، ثم تُشعرها أنها جارية اشتريتها من سوق العبيد، لا على أنها زوجة وشريكة عمر وحبيبة!

فليفكر مجتمعنا كما يحلو له، ويشدو رجالنا بالأمثال كما يرضون، ولتضج المجالس بالنكات والطرائف ذاكرة المرأة بكل ما هو سيء وضار. كل هذا لا ينفي الحقيقة أننا -نحن الرجال- كلما ازدادت اعمارنا فإننا نتعلق بالمرأة أكثر فأكثر، لأننا أصبحنا نخاف أن نبقى وحدنا، أصبحنا لا نستطيع التدبر بدونهن، فبالكاد تغيب عن البيت حتى نبدأ بالاتصال: "وينك؟ وينتا مروحة؟، يلا طولتِ".

وأمّا أنتنّ معشر النساء فلكنّ أقول: أعرف أنّ معظمكنّ لن يقرأن مدونتي وأكثركنّ لا يعرفنني، لكنني اعترف بفضلكنّ وجهدكنّ وصبركنّ فأنتنّ بطلات العالم الحقيقي، أنتنّ المستيقظات فجرًا، المصلّيات فرضًا، المرابطات مساجد وكنائس، المعدّات فطورًا، الخارجات عملًا، المطبّبات مرضًا، المهندسات مبنى، المعلّمات طلّابًا، الجاليات صحونًا، المحاضرات جامعًة، المنظفات بيتًا، والحانيات ظهورًا، المطعمات أفواهًا، العاملات مصنعًا، المديرات مكتبًا ومدارس، المذاكرات دروسًا، الحالّات فروضًا، المصححّات إملاءً، المحفظّات قرآنًا، الممرضات مستشفىً، المعدّات للنوم فراشًا، الداعمات رجالًا ، الصانعات أبطالاً.

وهل يمكننا ان ننهي حديثنا بدون طرفةٍ؟!

"راوية متمرس بعلم طبائع النساء يروي. على ذمته. أن رجلا من أبناء قريته دأب في مجالسه على امتداح زوجته وتأكيد إعجابه بعفة لسانها وصدق محبتها لوالديه وسائر ذويه. وكانت المرأة تجاري رأي زوجها فيها فتعتصم بالصمت وتلوذ بالكتمان.

وأصيبت المرأة أخيراً بهزال شديد وشحوب مخيف وغارت عيناها وقل كلامها ونومها وطعامها، وبعد أن عجز الأطباء عن تشخيص دائها ومعرفة دوائها شكا الرجل أخيراً أمره إلى شيخ حكيم في القرية، اشتهر برجاحة عقله وسداد رأيه فقال:

- دع زوجتك تصرح بحرية عن شعورها الحقيقي نحو والديك، وشجعها على انتقاد سائر ذويك. وإذا لزم الأمر افسح لها في مجال التحدث عن شناعة زوجة أخيك وشقيقتك وسائر نساء عائلتك، تصح بإذن الله، لأن المرأة ربيعها في التشنيع على أقارب زوجها، والمثل يقول: «المرا، اعدا اعداها: سلفتها وكنتها وبنت حماها».

وعمل الرجل بنصيحة الشيخ فشفيت زوجته في الحال."

صدق من قال: "وراء كل رجل عظيم امرأة".

وأنتم معشر الرجال اصبروا على نسائكم، إنّ الله يحب الصابرين.

دمتم بكل الخير

أ.أيمن جبارة